العلم الهندي القديم وتصوره للذرة

Ancient Indian science and its conception of the atom

أ.د.دراس شهرزاد*

كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران2 محمد بن احمد، الجزائر

****

تاريخ الإرسال:2019/01/04 تاريخ القبول:2019/01/25 تاريخ النشر: 31 جانفي 2019

ملخص:

إن ما عرف عن الهنود في العلم الطبيعي هو الذرانية الموجود في بعض المذاهب البوذية وخاصة الهندوكية الصراطية مثل النيابا والفيسيشكا، فالعالم مأخوذ من طبيعة مركبة ومن ثم فانية وتكون الأعراض حالات تطرأ على الجوهر ولا تستطيع أن تبقى بذاتها.ظهرت الذرية في الهند عند بعض الفرق البوذية وبعض البراهمة وكذلك عند فرقة تسمى الجانيا jania وكانت كلها تضع تصورا ذريا للطبيعة، وغير معروف على وجه الفترة الزمنية التي ظهرت فيها هذه النظرية عند الهنود إلا أنه من المرجح أنها ظهرت قبل الميلاد"، إن الهنود وصلوا إلى نظرية الذرة أو الجوهر الفرد كما هو في المذاهب الكلامية عند المسلمين.

كلمات مفتاحية: الهنود، الفلسفة القديمة، الذّرة ، البوذية، العلم، الفلسفة الهندية

Abstract :

What is known of the indians in the natural sciences is inherent in some buddhist doctrines, especially the hindu ways such as niaba and vyshiska, the world is borrowed from the nature of the composite and then vnja and the symptoms manifest themselves on gasoline and can not stay the same. the brahmins, as well as in a group called jania, all put an atomic perception of the unknown nature at the time of the appearance of this theory among the indians, but it is likely that it appeared before the birth of christ . "the indians have arrived at the theory of the atom or individual essence as in the doctrines words about muslims.

Keywords: Indians, Ancient Philosophy, Atom, Buddhism, Science, Indian Philosophy

***أستاذة التعليم العالي، تخصص فلسفة،مخبر الأنساق، البنيات، النماذج والممارساتderras.oran2@gmail.com**

مقدمة

تطورت الفلسفة الهندية تطورا طويلا ومعقدا، وقد يكون تاريخ تطورها أطول من تاريخ أية أسطورة فلسفية أخرى، ومع أن النظرة التاريخية ذات أهمية كبرى لفهم أسطورة كهذه، فإنه يستحيل تقديم دراسة تاريخية دقيقة لهذا التطور، ونتيجة لنقص التأريخ التاريخي لدى الهنود فقد ضاع الكثير من التفاصيل المتعلقة بالتتابع التاريخي للكتابات أو على الأقل لم يحفظ لها سجل. لذلك يمكن كتابة الفلسفة الهندية في أشكالها العريضة فقط، مع العلم أن الفلسفة كهذه لا تكتمل بدون التعرف على الفلاسفة الذين كانوا مسؤولين عن العقائد وعن تطور الفكر"[1].

يعتبر الدافع الروحي هاما في حقلي الحياة والفلسفة وتدرك الفلسفة الهندية الإنسان روحيا في طبيعته وتهتم بمصيره الروحي، كما تربطه بوجود روحي في جوهره ولا تطبق هذه النظرية على كارفاكا المادية"[2] هذه المدرسة تعتبر الإنسان والكون ماديين في الجوهر".

ففي الهند تعاش الفلسفة لأنها فلسفة حياة وليس كافيا أن تعرف الحقيقة بل يلزم أن تعاش أيضا..." فالفلسفة هي معرفة الذات وتنطلق هذه الفلسفة من العالم الخارجي أو من العالم الداخلي لطبيعة الإنسان الفطرية أي من ذات الإنسان وفي سيرها لبلوغ الحقيقية... فالفكر هو موضوع اهتمام الفلسفة الهندية... ولا يعني هذا أن العقل الهندي لم يدرس طبيعة العالم المادية بل على العكس تفوقت الهند في بحوثها العلمية خاصة في العلوم الرياضية في الجبر، والفلك والهندسة... كما تظهر مثالية الفلسفة الهندية، وخاصة الهندوسية منها، بميلها المثالية التوحيد، وتعتقد هذه الفلسفة أن الحقيقة واحدة وهي روحية، وهي ترشح الحياة والحقيقة، على ضوء مثالية التوحيد، وتعبر عن نفسها كوحدة حتى في العقائد المتنازعة ... كما لعبت المادية دورها في زمنها في الهند حتى عندما حاولت المدارس الروحية إسكاتها، فلم تستمر هذه المادية بل تقبلت المثالية وجعلت منها النظرة الوحيدة الممكنة ... لقد أبدعت الهند عقائد كثيرة ومناهج فلسفية عديدة... فالسماكيا لا يذكر شيئا عن إمكانية وجود الله على الرغم من بوضوح

[1]- الدكتور سرفبالي الواكرشك رئيس جمهورية الهند والدكتور رشا لرموز، الفكر الفلسفي الهندي، ترجمة ندرة اليازجي دار اليقظة العربية، طبعة 1967، ص7

[2]- المصدر السابق ص 13

الفكرة في كتاباته، واليوجا والفايسيشيكا وخاصة الأولى تعترفان بوجود الله لكنهما لا تعترفان أنه خالق الكون، وأما ميمامسا فإنها تتحدث عن الله لكنها تنفي أهميته أو تدخل فعاليته في النظام الأخلاقي للعالم"[1].

من الناحية الفلسفية تعد دراسة الفلسفة الهندية هامة في الحث عن الحقيقة، وللفلسفة الهندية أثر في هذا المجال لأنها تمثل بداية الإنسان عند تساؤل عن الحياة والواقع.

إن تأريخ للأفكار الهندية الكبرى هو قراءة للكتابات الفلسفية القديمة في الهند كتاريخ لحضارة شعب ساهم في إنجاز علم متطور وواع، " فالعقائد الشرقية، الفكر الشرقي، الفلسفات في الشرق، الفلسفة الشرق، الفلسفة في العالم أو عند الإنسان، تلك هي التسميات المتراتبة التي مر بها " تاريخ الفلسفة" في أوروبا"[2]، فالعقائد والطقوس والإيمان بالشعائر الدينية هي سبب الاختلاف في الرأي وفي طرح الاتجاهات المختلفة من تسميات كفكر شرقي (فلسفات شرقية حتى توقفوا كثيرا عند فكرة " الشرقانية"[3] المتميزة بنظرة عقلية وخلقية وعقائدية إلى كل من الوجود والألوهية والتصوف.

إن دراسات الأفكار الشرقية القديمة وهو إطلاع لسيرورة فكر، وقدرته على التفاعل مع واقعه، ووعيه بذاته، وبالإنسان عموما، "فالإنسان هو التاريخ"[4]، فدراسة تاريخ الفلسفة والأفكار تبدأ بالشرق تكون منطقية، تملها المناهج التاريخية من الضروري بداهة البدء بالبدء، كمقارنة المفهوم عينه في مجتمعات متعددة وحقب مختلفة في أوضاع متباينة يؤدي إلى مسكه أفضل"[5].

لإن دراسة تاريخ الأفكار والفلسفات ينمي روح النقد والمقارنة للمناهج التي اتبعها العقل البشري ما قبل آلاف السنين إلى يومنا الحالي.

---

[1]- المصدر السابق ، ص من 14-20 بتصرف

[2]- الفلسفة في العالم والتاريخ- الفلسفة في الهند- قطاعتها الهندوكية والإسلامية والمعاصرة مع المقدمات عن الفلسفة الشرقية وفي الصين- د علي زيعور- مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر الطبعة الأولى1413هـ1993م- ص 15

[3]- المرجع السابق ص 15

[4] -R. Aron introduction a la philosophie de l'histoire Paris – Gauimard, 1948- P 339

[5]- المرجع السابع الفلسفة في الهند، الدكتور علي زيعور ص55

إن فلسفات كونفو شيرس، والزرداشيتية، وبوذا هي فلسفات تحاول أن تنشد الحقيقة، والنقد والفضولية " قراءة سيرورات التاريخ للفلسفة- أو الفكر على الأدق- في الشرق القديم يؤكد حقيقة أن لا وجود لقانون واحد ومستنفد يفسر تطور الفلسفات، واتجاه تطورها صوب الرقي الحتمي"[1].

إن فلسفات الشرق القديم مجهولة ومكتبتنا العربية تفتقد إلى الأبحاث في الأفكار الفلسفية والعقائدية وكل ما نجده فقط ما تقدمه بعض الأبحاث الفلسفية ببعض اللغات العالمية، وحتى في هذه اللغات لا نجد ما يكفي لدراسة حضارة الشرق القديم، بالإضافة إلى جهلنا إلى اللغة الهندية والصينية فما نجده فقط هو ترجمة للأسفار الهندية إلى اللغة الفرنسية، وما نجده باللغة العربية ما هو إلا ترجمة لهنود عرفوا اللغة العربية للنصوص فقط ودون الأبحاث، كما أن ما نقرأه عن كتابات العرب حول الفكر الشرقي القديم ما هو موافق أخلاقية وطقوس وعقائد وأعراف "فالتاريخ الحضاري الشرقي برمته كما يزل بعد بحاجة للنور، كذا الأمر بالنسبة إلى فلسفاته"[2].

إن الكتابة في مجال تاريخ الأفكار والفلسفة النقدية التأملية لفلسفتها ومناهجها تتطلب قراءة مقارنة ونقدية لتاريخ قراءة مقارنة ونقدية لتاريخ الفلسفة الذي يبدأ بالشرق لأن تاريخ الفلسفة يظهر " الكثير مما هو عام ومشترك بين متفلسفي الأرض، لأن الفكر عموما يعمل كما هو يفسر بعقلانية وشمولية، يود أن يقود ويؤثر، وبذلك يتحول العقل إلى الفلسفة أو يكون هو الفلسفة"[3]، وكما يصرح فكتور كوزان:" أثينا من الرومان والرومان من اليونانيين، وأخذ اليونانيون من الشرق لغتهم، وفنونهم، ودينهم... إن الشرق إذن بنظرنا هو نقطة انطلاق الفلسفة"[4] إذا بدأنا بالمقدمة التي هي أن شرق هو بداية الفلسفة، ونقصد بالشرق الهند فالمقدمة الثانية هي بما يتميز الفكر الهندي وما هي المقولات الأساسية والمصطلحات الفلسفية التي تجعل "الفكر مرتبط بالحياة والحياة تطبيق عملي للفلسفة"[5]، فالمدارس الهندية هي مدارس تطرح فلسفة تطبيقية فالعقيدة والحياة غايتها واحدة فالهندي يمارس سلوكا واقعيا مطابقا لما يؤمن به، فالفلسفة

[1]- المرجع السابق- ص 57

[2]- المرجع السابق- ص62

[3]- المرجع السابق – ص65

[4] - V cousin, cour d'histoire de philosophie Vol 8 P 156

[5]- المرجع السابق، الفلسفة في الهند ،د علي زيعور ص 77

الهندية هي طريقة للعيش فالراهب الهندي يتجول في البلاد يدعوا الناس إلى ما آمن به، واستخلصه كحقيقة مخلصة من الآلام، ولا يكتفي بالتجريد وطرح التصوري الذهني، بل أنها تجربة تذوب الذات في الموضوع، ومنه يصل الراهب الهندي إلى الاعتكاف الذي يعتبر أساس المشكلة المعرفية المرتبطة بمعرفة الوجود أو فلسفة الوجود (الأنطولوجيا) فالفلسفة الهندية القديمة فلسفة باطنية تعمل على الانغماس في وعي الإنسان لغاية اكتشاف أسرار الطبيعية إنها " ترمي إلى تغيير جذري في طبيعة الإنسان وتكييف فهم هذا الوجود الشخصي، وللعالم الخارجي... الكفاح روحي أنه ضد النفس لا ضد العالم"[1] فالفلسفة الهندية فلسفة تميزت بالتشاؤم والروحانية، فمثلا نجد في أسفار المقدسة مثل(الفيداWeda)* التي تعتبر عن الحكمة والتصوف، والصلوات والأعراف، وردود الفعل اتجاه الطبيعة كما يقسم سفر الفيدا إلى أربعة أقسام هي:

1. "تسامهيتا" فهي أدعية وصلوات، 2. "بْرَهْمَن" تحوي الطقوس والمعتقدات الدينية ومراسيم الاحتفالات والقرابين، 3. "أرنياكا"فهي عبارة عن نصوص خاصة تقدس الغابة والتنسك، 4. "أوبنيشاد" تمثل الفلسفة الهندية، وقمة الأسرار الصوفية وعقيدة الاتحاد بين الذات الفردية (الأثمن) بالذات الشاملة الكونية (براهمن)[2].

إن القداسة التي أحيطت بها اللغة السنسكريتية*، والسبب في تقديسها حتى يعتبرها المؤرخون من بين الأسباب التي أعطت للهند ديمومة في الشخصية عبر التاريخ والاستمرارية في التجانس الفلسفي- لأنها تمثل لغة الدين ورجال الكهنوت: "ففيها كتبت أسفار الفيدا والشروح والملاحم.. فوحدت أقواما مختلفين وحافظت على النسخ الروحي

---

[1]- المرجع السابق ص 78

*- أن الفلسفة الهندية فلسة روحية في المقام الاول وذلك رغم وجود الاتجاه المادي في هذه الفلسفة منذ ظهورها فيما يسمى بمرحلة (الفيدا) (بين عامي 2500 و600 ق.م) وخاصة في رج فيدا Rigweda الذي بدأ فيه الشك في وجود الآلهة والنظر إلى المادة على أنها كل شيء فمنها وجدت كل الأشياء وإليها تعود الدكتور مصطفى النشار المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة- الطبعة 1977م ص 93

[2]- الدكتور رؤوف شلبي الأديان القديمة في الشرق مع ترجمة لكتاب البودية دار الشروق- بيروت- الطبعة الثانية-1403هـ 1983م ص 80-84

*- يتفق المؤرخون على أن الحروف السنسكريتية والخط الديفناغارس Devanagare، ذات الأصل الكنعاني.

الهندي،. واستمرت حمالة الحكمة والفلسفات والعقائد"[1] ومن أهم المفاهيم الفلسفية في الهند والأصيلة في الفكر الهندي القديم، والتي تتميز إلى يومنا الحال بقيمتها العالمية هما مفهوم "البرهمن" ومفهوم آتمن"[*]، قاد هذان المفهوم إلى نظرية ومفاهيم معرفية خاصة، والذي يتجلى بشكل واضح في عقيدتين "الأنيكا" Anica القائلة بأن كل شيء يتغير في لحظة وأن الظواهر وهمية تؤدي إلى الفوضى والجهل، وأن الجهل سبب الألم.
الأنتا (Anatta) القائلة بالأنا، بلا حقيقة الذات، فتقع في عقيدة أخرى وهي المايا (maya) ويترجمها الهنود باللاإزدواجية، وعلى الإيمان بالصفة الجوهرية للعالم، والصفة الظاهرية فقط للشخصية"[2].

قراءتنا للمعتقدات الهندية ما هي إلا تعريف بالطابع الذي يميز الفكر الهندي قديما، وأيضا حتى يجدد لنا المنهج اللازم والأولي في عملية تفحص الفلسفة الهندية، وقراءة تاريخ هذا الفكر قراءة نقدية يمكن من خلالها تحديد المفاهيم المعقلنة والممذهبة للكون، والإنسان والحياة، والقيم عند الهنود قديما؛ رغم أنه من الصعب، من وجهة ما القول بوجود فلسفة بالمعنى الدقيق للكلمة في هذه الفترة القديمة جدا بالمقارنة مع المعنى المطروح للفلسفة والذي نستعمله، هذا راجع لعامل مهم جدا "هو ذلك المزج بين الفلسفة والدين، والأخلاق والطقوس العلم والسياسة كان ذلك المزح، حالة أو حتمية رئيسية في الفكر الهندي، يصنع عقبة أمام الباحث في المجال الفلسفي"[3] إلا أنه من اللازم أن يبدأ أي باحث في مجالات المعرفة الإنسانية عبر التاريخ في قراءة وتفحص هذه الفلسفات الشرقية القديمة قد تختل مكانتها اللازمة قبل دراسة فلسفة اليونان، لأنه زمن وجود معجزة اليونان كأم وحيدة للفكر البشري قد تراجع في الفترة الأخيرة، وأن

---

[1]- د. علي زيعور- فلسفة في الهند- مرجع سابق –ص 87

[*]- يدل مفهوم البراهمن على القدرة العليا المقدسة بمعنى القدرة الكونية أما مفهوم "الأثمن" فيترجم بكلمة نفس، روح، ذات فردية جوهر الإنسان واتحاد المفهومين (الأثمن مع البرهمن) يحقق الخلود والحقيقة الأسمى (المرجع السابق) ص 87

ملاحظة: اطلق المستشرقون على كتب الويدا لفظ الفيدا وهو خذطأ في اللغة الشرقية لأن لا تنطق واوا وليس في اللغة الشرقية لفظ لا ينطق ولكن المستشرقين ترجمو الكلمة وكتبوا اللفظ الواو فهي ويدا لأن في اللغة الشرقية لا ينطق باء.

[2]- المرجع السابق ص 88-89

[3]- المرجع السابق ص150

الفكر اليوناني لم يخلق من عدم، بل جذوره الفكر الشرقي القديم، الذي أسس قسما منها وهذا ما ينفي الحكم على الفلسفات السابقة عن الفكر اليوناني وفلسفته بأنها فقط تدينات أو حكم وأحكام دينية.

يمكن أن توضح المناقشة حول دور الهنود القدامى وفكرهم في تأسيس الفلسفة الإنسانية حتى اليوم؛ وعنه نبدأ بطرح التساؤل التالي الذي يحدد المنحنى المنهجي والمعرفي لموضوع البحث ألا وهو:

كيف يتصور الفكر الهندي القديم الذرة؟ ومدى تفاعل الفكر الإسلامي مع الفكر الهندي؟

إن الملاحظة المطروحة هي أن الفكر الهندي عميق، وأعوص من هذا البسيط واختصرنا له في هذا الطرح ما هو إلا تعريف بمقوماته الأساسية، والذي ينشدنا إلى الاهتمام به هو البحث عن المصدر الهندي كتصور سابق على نظرية الجوهر الفرد الكلامية وقول الهنود بالجزء الذي لا يتجزأ*.

إن المباحث العلمية في الهند القديمة قليلة لكن هذا لا يعني أن الهنود لم يعطوا شيئا في الحساب والطبيعة رغم أن هذه العلوم وجدت لتخدم غايات عملية ودينية، دون أن تقوم كعلم مستقيل"[1].

إن قلة المباحث العلمية في الهند لا يعني قولنا أنها بلد لم يعط شيئا في العلوم بشتى أنواعها وفروعها، إن تلك القلة هي كذلك بالنسبة للعلوم الأخرى أقصد الروحانية في أكمل للإنسان، فالهنود أحرزوا ثروة مرموقة في الرياضيات، وعرفوا الأرقام وبلغت مدرسة "نيانا" Nyana درجة رفيعة في المنطق لا سيما القياس.

إن ما قدمه العلم الهندي "للإنسانية ما يمكن مقارنته بالمقدار الممتاز الذي أدنه حضارة ما بين النهرين أو الحضارة الفرعونية"[2]، فعلى سبيل التحليل في مجال الهندسة والرياضيات نجدها بلغت درجة من التجريد إلا أن الهندسة كانت عملية وغايتها موجهة إلى البناء وهي التي ازدهرت أكثر، فنجد في "كتب "شولفاسوترا" çulvasutras مؤلفات في

* - الجزء الذي لا يتجزأ عند الهنود هو الذرة حسب العلم المعاصر اليوم.

[1] المرجع السابق ص 93

[2] -المرجع السابق ص 379

الهندسة التطبيقية وهي دروس عملية في بناء المذابح والهياكل فتحوي على رسوم الزوايا القائمة، والمربعات والمستطيلات"[1].

أما في علم الفلك فكتب "سدهانتا Siddhantas إلى "أرثابهاتاAryabhata في القرن الخامس للميلاد الذي أسس علم الفلك التعاقبي الهندي، ونظريات غوبتا المولود في سنة 598 التي عرفها العرب وأثرت فيهم بعد أن نقلها كنكهKankah في عهد المنصور وفي علم طبيعة عرف الهنود نظرية الحالات الثلاث للمادة ونظرية العناصر الأربعة فعقيدة السامكيا" وظف هذين النظريتين في تحديد الصفات الجوهر المادي وهي ثلاثة: النور، الحركة، العتمة* وهي صفات أخذها الهنود عن الأشوريين الذين قالوا أيضا بالثالوث، " وهو سن (Sin) ويعني رب السماء أو إله القمر، أيا (Ea) رب المياه، أنليل، رب الأرض"[2].

فتقول الأسطورة البابلية "في البدء قبل أن تسمى السماء وأن يعرف للأرض اسم كان المحيط وكان البحر".

وجاء في قصة مصرية" في البدء كان المحيط المظلم أو الماء الأول حيث كان أتون وحده الإله الأول صانع الآلهة والبشر والأشياء"

جاء في الثوراة :" في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خاوية وعلى وجه القمر ظلام، وروح الله يرف على وجه المياه. [3]

إن ما عرف عن الهنود في العلم الطبيعي هو الذرانية الموجود في بعض المذاهب البوذية* وخاصة الهندوكية الصراطية مثل النيابا والفيسيشكا، فالعالم مأخوذ من طبيعة مركبة

---

[1]- المرجع السابق 380 بتصرف

* - الأوبيتشاد القديمة قالت بالثالوث، السماء، الفضاء، الأرض، كما أنه من الصعب تحديد تاريخ وضع كتب الأوينشاد (الأوينشادات) حيث يوجد اتفاق على أنها تعود إلى مابين 1000 وإلى 500ق.موهي التعليم السري، أو الحكمة الباطنية وتشتق الأباتيشاد من فعل يدل على معنى (جلس قرب) أو وضع شيئا قرب آخر" ومعناه الربط، أو المعادلة، فالأوبايشاد تقوم التواصل والعلاقة بين جميع الكائنات والأشياء يعني ذلك أن جميع الأشياء التي هي مؤلفة من الرقم ذاته تكون ذات خاصية مشتركة، وأن الأسماء والأشياء التشبيهية بكلمات أخرى تدل على فعل ما، هي عملية مؤلفة من آلهة أي فوق الطبيعة المرجع السابق ص 128

[2]- ماسون أوروسيل بول: الفلسفة في الشرق: ترجمة محمدي موسى القاهرة طبعة 1947، ص 108-109

[3]- د. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية- دار القلم- بيروت الطبعة الثالثة ص 12

ومن ثم فانية وتكون الأعراض خالات تطرأ على الجوهر ولا تستطيع أن تبقى بذاتها.ظهرت الذرية في الهند عند بعض الفرق البوذية وبعض البراهمة وكذلك عند فرقة تسمى الجانيا (jania) وكانت كلها تضع تصورا ذريا للطبيعة، وغير معروف على وجه الفترة الزمنية التي ظهرت فيها هذه النظرية عند الهنود إلا أنه من المرجح أنها ظهرت قبل الميلاد"[1]، إن الهنود وصلوا إلى نظرية الذرة أو الجوهر الفرد (كما هو في المذاهب الكلامية عند المسلمين)قبل ديمقريطس ولوقيبوس، وهما من أول القائلين بها في بلاد الإغريق، إلا أن هذه الإشارة أثارت مشادات بين عدد من العلماء، والمتفق عليه أن المذاهب الذرية نشأت في الهند في مدرستي "نيايا" وفايسيشكا" في عهد لا يمكن تعيينه بالضبط، وإن كنا نجزم أنه يرقى إلى ما قبل المسيح"[2]. فهناك من يرجع معرفة اليونان لهذه النظرية بناء على تأثرهم بها عند الهنود، ذلك أن ديمقريطس وهو من القائلين بالذرة من اليونان قد نشأ في بلده أبديرا وهي مدينة كانت لها علاقات مع الشرق.

عرف عن الهنود الصفر وظهوره عندهم كان له تأثير كبير في حقل الحساب أو الهندسة، فالصفر يشبه النقطة، فيرجح "بينس" أن الجزء الذي لا يتجزأ عند الهنود هو بمثابة النقطة لكن هذا لا يفسر كيف ربطت الديانات الروحية في الهند بين الروحانيات والماديات من خلال فكرة الجزء الذي لا يتجزأ؟

إن اعتناق المنهج النقدي عدل من اندفاع الخيال التأملي وأظهر أن الفلسفات الظاهرة لم تكن ثابتة كما أرادها معلموها، لكن حمية الماديين والمشككين وبعض إتباع بوذا هدمت كل قواعد التأكيد... ومن بين مناهج الفكر أو دارسانا، أصبحت سنة أكثر شهرة

---

[*] -عاش بودا فيما بين عامي (560 أو567و480 قبل الميلاد تقريبا حياته تتشابه مع حياة زعماء الديانات الكبرى في العالم، كان مفكرا مصلحا تتساءل حقيقة الوجود، واكتشف أن حقيقة الوجود إنما تكمن في الألم فكل وجود في حقيقته إنما هو ألم، ولم يمكن التخلص من الألم وإلا بسلوك طريقة المعرفة والاستنارة " أما حقيقة الألم تهيئ ظمأ الذي يقود إلى ولادة جديدة متصلة بالفرح وبالرغبة ظمأ اللذة للغلسفة اليونانية- مرجع سابق ص 101)

[1] - د. منى أحمد أبو زيد- النصور الذري في الفكر الفلسفي الإسلامي المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع- الطبعة الأولى 1414هـ/1994م ا19-20

[2] - جورج سارتون- تاريخ العلم- ترجمة: د جورج حداد و ماجد فخري، الجزء الثاني- –دار المعرف بمصر –الطبعة الثانية مارس 1970 ص600

وهي: نيايا لجوتاما، فايسيسكا، لكانيارا، سانكيا لكابيلا، اليوجالبانيتا، جالي، بورفايمامسا لجامتي وأوتار أميمامسا لبارايايانا أو الفيدانتا، هذه هي المناهج البرهماتية وذلك لأنها تعترف بالفيدا كمرجع"[1].

لكل أسلوب فلسفي نظريته الخاصة في المعرفة، وهو جزء من كل أو نتيجة ضرورية لميتافيزقا النظرية الحدس، الاستدلال والفيدا متبدلة في المناهج "العقل أقل أهمية من الحدس ولا تفهم الحياة بكمالها بالعقل المنطقي، الوعي الذاتي ليس النموذج المطلق للكون... إن ساقيه العالم لا تزال تسييل منذ الأبدية، وهذا السيلان ليس عقليا فقط بل موضوعيا أيضا، ونتبع هذا السيلان حتى براكتي (الطبيعة) الأبدية أو مايا أو الذرات، ويستنتج أن كل ماله بداية له نهاية، كل شيء مصنوع من أجزاء لا يكون أبديا أو موجود بذاته الفرد لا يجزأ الحقيقي ليس هو الكون المتحد في الزمان والفراغ لأن طبيعته هي الصيرورة لا والكيان يوجد شيء أعمق من هذا الذرات والذوات أو براهما، أو بوروشا أو براكتي"[2].

تمثل "النيايا" والفايسيشيسكا" من أصل مناهج الفكر الستة التي وجدت في هذه الفترة، النموذج الفلسفي النقدي.

"إن الصفة المميزة للفلسفة النيايا هي تفحصها لمواضيع المعرفة من خلال قواعد البرهان المنطقي، إن مناهج الفكر الهندوس تتقبل عادة مبادئ منطق نيايا الأساسي وتشبه آراء نيايا المادية والميتافيزقية. التحقيق الذري، آراء فايسيشكا المادية والميتافيزقية تماما"[3].

ماذا تعني النيايا؟ "تعني حرفيا" ما يقود العقل إلى نتيجة وفي استعمالاتها العامية تعني "الصحيح" أو "العادل" وفي معنى أشمل علم البرهان أو المعرفة الصحيحة"[4]. والإدراك والاستدلال المقارنة والشهادة هي وسائل المعرفة الصحيحة عند النيايا، والإدراك هو أهم هذه الوسائل الأربعة.

ومن براهين "نيايا كوسوميا نجالي" على وجود الله وجود كائن كلي القدرة ودائم "الأرض" وغيرها يجب أن يكون لها صانع لأن لها طبيعة "المسببات" مثل الجرة أن يكون للشيء

[1]- أ. سرفبالي الوكرشنا، ود: رشا لرموز- الفكر الفلسفي الهندي مصدر سابق ص 442-443

[2]- المصدر نفسه ص 446

[3]- المصدر نفسه ص 449

[4]-المصدر نفسه ص449

صانع تعني أنه ينتج بوسيط يملك الإرادة أن يعمل، وله أيضا معرفة مدركة للعلة المادية التي صنع منها و"الاتحاد"، هو فعل، أنتج صلة ذرتين وأوجد المزيج الثنائي في بد الخليقة ترافق هذا الإيجاد إرادة كائن ذكي لأن له طبيعة فعل،مثل أفعال أجساد كأجسادنا، ومن أعداد خاصة، إن قياس مركب ثنائي ينتج عن العدد طالما أنه قياس (لا أبدي) مستخلص لا ينتج عن قياس أو مجموعة قياسات.. إن قياس الذرة لا ينتج قياسا لأن قياسها أبدي (وهكذا غير قادرة على التبدل) أو لأنه قياس للذرة هكذا يوجد في بدء الخليقة عدد من الإزدواجية تقطن في الذرات هذا العدد الإزدواجي الذي هو علة قياس المركب الثنائي لكنه لا ينتج في ذلك الوقت بإدراك الكائنات المميز مثل أنفسنا هكذا نقدر أن نستنتج هذه الصفة المميزة بأنها موجودة في الله، لكن كيف أن واقع شيء كونه مسببا يتطلب إنتاجه بالإرادة؟ الإجابة هي إذا كانت الذرة تستعمل بالاستقلال فإنها تبطل أن تكون مادة حيوانية إذ توجد علة لا يوجد مسبب والمسبب الخاص له علة خاصة لا يوجد سبب بدون مسبب إذ كانت الذرة موهوبة بالإرادة فينتج أن الذرة كانت ذكية طالما أن شيئا ذكيا يقدر أن ينتج مسببا فقط عندما يحير من قبل كائن ذكي وهكذا يبرهن وجود الأمر على وجود آمر هو الله"[1].

إن التحليل الثيولوجي والأنطولوجي لوجود الله في الفكر الهندي عند النيايا كان أساسه الطبيعة والذرة.

فالنيايا الجديدة التي قال بها كسوميا نجالي الإنسان الذي كان يعبده كل الناس على السواء، ويعتبرونه العارف، والواحد المستقل، الأب العظيم، (برهما) وإكليل المعرفة، وهو الذي أثبت بتجمع العالم، وإتباع النيايا يعتبرونه كل ما يقال باستحقاق عنه- جاءت لإثبات وجود الله بالتأمل والبحث المنطقي في الله، فكانت فرضيته أنه توجد علة للعالم وهي أسمى من الحواس ودليله أن الخلق والفناء يحدثان، وأنه لا يمكن أن تعتمد إلا على الله، فلا توجد طريقة أخرى لإثبات وجوده(الله) وأنه كائن سامي ليس موضوعا شرعيا للإدراك فيقول: " بما أننا لا نقدر أن نحصل على إدراك شرعي لا نقدر أن نحقق وجوده"[2].

---

[1]- المصدر نفسه ص 478-479

[2]- المصدر نفسه ص 477

فقياس الذرة في النيايا فهي أبدية، وغير قابلة للتبدل، فالخليقة بدأت من عدد من الإزدواجية التي تقطن الذرات، فتنتج مركبا ثنائيا فالنيايا لم تخرج عن الأساس الفلسفي للأوبانيشاد التي هي الأجزاء الختامية للفيد "منهاج وصل فيه التأمل الفلسفي قمته العليا، والتي ترتكز على تأكيد وجود الإله الواحد التي تعتبر جميع آلهة الفيدا مظهرا له، إن هذا الإله هو الكائن الأعلى وهو الحقيقة الوحيدة القائمة بذاتها وهو لا يحد ولا يوصف بالرموز العضوية أو بالأوصاف المنطقية وأنه أصل الموجودات فهو برهمان في ذاته الذي يتعالى على الظهور والإدراك"[1] إن هذه الفلسفة ارتبطت أيضا بالدين، وخاصة عندما الاتجاه المادي في "رج فيد" Rig Veda "الذي بدأ فيه الشك في وجود الآلهة والنظر إلى المادة على أنها كل شيء فمنها وجدت كل الأشياء وإليها تعود"[2] فالدفاع عن عقيدة عند النيايا وخاصة هند كوسوميا نجالي عن طريق الذرة هو لدحض الأفكار المادية التي ظهرت في رج فيدا، ولإثبات وجود الله كان لابد من الاعتراض على الأفكار المادية بواسطة الطبيعة المادية والطبيعة الذرية.

ما الذي أضافته الفايشيسكا على النيايا ونيايا كوسوميانجالي؟ أولا يشتق هذا المذهب من " فيسبشا" بالمعنى " الخصوص" ويوضح معنى الأشياء الخاصة والأفراد وهو منهج تعددي (جمعي)، إن فايشيسكا مذهب فيزيقي وميتافيزيائي، ويعتنق تصنيفا سداسيا لمواضيع التجربة، الجوهر، الكيف، الحيوية، التعميم، الخصوص والنظرية وقد أضافت فايسيشكا المتأخرة موضوعا جديدا هو اللاوجود.

وتتضمن الحقيقة جواهر تمتلك كيفا (صفات) والجواهر هي قاعدة الكيف (الصفات) لكنها تختلف عن الكيف (الصفات) التي تمتلكها"[3].

"التراب والنور والهواء والأثير والزمن والفضاء والروح والذرات والعقل هي الجواهر التسعة التي تشكل كل الأشياء المادية وغير المادية"[4].

تعتنق الفايسيتشكا النظرية الذرية ، الأشياء تتألف من ذرات أبدية لا ترى ولا تقبل القسمة، وتوجد أنواع أربعة للذرات، التراب، الماء، النور، الهواء.

---

[1]- د. مصطفى النشار- المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية- دار قباء للطباعة والنشر القاهرة الطبعة الأولى 1997

[2]- المرجع نفسه، ص 93

[3]- المصدر السابق- ص 480

[4]- المصدر السابق ص 481

"وقد اعتبرت الفايستشكا غير إلهية، وكانيادا (أوكياسيابا)مؤلفها (هي أقدم من النيايا لكنها تأتي بعد عام 300 ق.م)*، لا يذكر الله، لكن المعلقين المتأخرين شعروا أن الذرات غير المتبذلة لا تقدر بذاتها أن تنتج وجودا منظما ما لم ينظم الله حيويتها ونشاطها، إن سلطة الفيدا أو تجمع معاني الكلمات تتطلب منا أيضا أن نفرض محركا أونيا، ولا يفسر العالم بنشاطات وحيويات الذرات لوحدها أو بعمل كارما، فالمنهج إذن يعتنق فكرة الله الموجودة في النيايا"[1].

تعرض الفايتشيسكا عقيدة الفيدا بأسلوب نقدي يقوم على تفسير الطبيعة من خلال الجواهر، والقائمة على نظريتها الذرية لإثبات واحدية الإله.

" فالجوهر لا يفنى لا بالمعلول ولا بالعلة، أما الصفات فتفنى في المعلول والعلة فتنشئ للجواهر جوهرا آخر، وتنشئ الصفات صفة أخرى، وعلامة الجوهر هو أنه يمتلك فعلا وصفه، وعلة متحدة، وعلامة الصفة هو أنها فطرية في الجوهر، وعلامة العقل هو أنه يقطن في جوهر واحد فقط، الصفة هي العلة المشتركة للجوهر أو الصفة والعقل؛ والعقل هو العلة المشتركة للاتصال والانفصال والدافع، والعقل ليس علة الجواهر بسبب توقفه، الوجود كونه علة الاشتراك فقط، النوع والأجناس صنعت ماعدا الأجناس النهائية، والوجود هو موضوع مختلف عن الجوهر والصفة والفعل فهو يوجد في الصفات والأفعال فهو ليس له صفة أو فعلا.

والوجود واحد بسبب وحدة العلامة أي أنه موجود. أما جوهرية وأبدية الزمان تتوضحان بتوضيح جوهرية وأبدية الهواء، ووحدة الزمن تتوضح بتوضيح وحدة الوجود، وجوهرية وأبدية الفراغ تتوضحان بوضوح جوهرية وأبدية الهواء وحدة الفضاء تتوضح بتوضيح وحدة الوجود؛ الحيوية واللاحيوية، الملاحظة في الذات هما علامتان لوجود الذرات، نفس الحياة الصاعد والنازل، إغلاق الجفون وفتحها، حركة العقل وتأثيرات الحواس واللذة والألم والرغبة والرفض والإرادة هي علامات لوجود الذات ويبرهن عنها بشكل خاص بالداخل وبالمعرفة الحسية بشكل "أنا" أما الأبدية فهو ما يوجد ولا يعلل، المسبب هو علامة وجود الذرة المطلقة، والتي من الخطأ أن نفترض أنها

---

*-العناصر الأربعة عند اليونان هي نفسها الأنواع للذرات والتي تسمى عند الفلاسفة الطبيعية وعند أرسطو الأسطسقات الأربعة النار الماء، الهواء، التراب.

[1]- المصدر السابق، 481

ليست أبدية. التراب والمياه والنار والهواء هي علل مادية لأعضاء الحس والذوق واللمس واللون"[1].

إن المعرفة الأبدية عند الفاسيشكا تنتج عن صلة خاصة للذات والعقل في الذات، ولا وجود لمعلول سابق عن علته كيف تتم عملية خلق وفناء الجوهر المادية الأربعة الأساسية في فلسفة الفاسيشكا؟ "أتت هذه العناصر، وبمجيئها إلى الوجود، تنتج من مجرد فكر (التصور العقلي) الإله السامي، البيضة الكبيرة من خارج الذرات الخارجية الممتزجة بذرات التراب، وفي هذه البيضة أنتجت كل العوالم وبرهما ذات الوجوه الأربع، وهو جد كل المخلوقات ويعين الإله الإله الأسمى واجب إنتاج المخلوقات المتنوعة"[2].

ثم كيف برهنت الفايسيشكا عن نظرية الذرانية وجود الله؟

الجواهر الأساسية الأربعة هي مسببات، وهي تسبق بشخص له معرفة عنها" بما أن التراب والجواهر الأخرى مصنوعة منه أجزاء فهي مسببات"[3]

وجود الجواهر هو مقدمة مطروحة لدى الفايسيشكا لإثبات سبق كائن ذكي هو الذي يؤكد بالضرورة صفته الخاصة وهي الخلق وفي حالة إثبات وجود خالق هو الله تكون الذرة هي الموضوع الذي يفرض أو يفعل به إن تعدد العدد يبدو في الذرات حسب إرادة الله.

فالذرات لا تدرك بأعضاء الحس، خاصة أن ليس لها وجود في الجواهر المدركة بذات الشكل "كالكيان" ولا تدرك بذاتها ونستنتج أنها تستدل من فكرة أنها "هذا يكون في ذاك"[4].

حاول الفكر الهندي القديم أن يقدم انسجام بين عمل الفلسفة الميتافيزقية والفكر الديني ولأن وحدهما يستطيعان الذهاب إلى ما وراء الظواهر والتطورات إلى حقيقة الأشياء فالفلسفة عند النيايا والفايسيشكا كان بحثا عقليا عن الحقيقة الأصلية للأشياء، والدين هو المحاولة لأن نجعل الحقيقة دينامكية في روح الإنسان، وهما ضروريان معا.

---

[1]- المصدر السابق، ص 482...494 بتصرف

[2]- المصدر السابق، ص500

[3]- المصدر نفسه ص 501

[4]- المصدر نفسه ص 520

فهذه المدارس قدمت فلسفة للدين، حاولت أن تبدع حلا عقليا لمشكلة الألوهية، والبرهنة على أن الله حقيقة وليست وهما، فلا توجد فلسفة بدون وقائع الدين، ويعود لفلسفة الدين إن تكتشف إن كانت أحكام أصحاب الرؤوس الدينيين تتناسب مع قوانين ومبادئ الكون، فمحاولة وضع تعابير دقيقة في العلوم الطبيعية لدى النيايا والفايشيسكا هو محاولة فلسفة الدين الذي يحدد العالم والذي تشير إليه التجارب الدينية لدى الهندوسي، واستدلال هذه المناهج هو افتراض الذرة وأن صورتها العقلية هي شيء حقيقي، وبالتالي هي نظرية رمزية يثبت بها افتراض وجود الله، يمكن أن يكون الإله حقيقيا كالذرة، ولكن ليس بالضرورة أن يكون الحقيقة التي تدركها مباشرة الفايسيشكا، أن فكرة الله لديها هي أوضح للتجربة، فماهية المادة لا تعرفها هذه المدرسة بدقة وهذا يمكن أن لا يعرف معنى الله عندهم، مع أنه يمكن أن يعلم شيئا عن الله أو ما يجيب على الله في الحقيقة من خلال تجربة الفيدا الدينية، وتعاليم الأوبانيشاد التي تقدم لنا الله الذي يعلو ويسمو على النهائي واللانهائي.

وتجعله الله الشخصي الذي يخلق العالم المدرك بطبيعته أنه مسؤول عن خلق وحفظ وفناء الكون وتتحدد طبيعته الثنائية في أنه الأرض والماء والنار والهواء والأثير والعقل والفهم والإحساس بالذات هي الأجزاء الثمانية الطبيعية وهي الطبيعة السفلى، أما الطبيعة العلوية أو العليا هي الروح والتي يسند بها هذا العالم.

إن تفسير الواقع لدى الفايسيشكا يقوم على التمايز بين الجواهر والذرات والأرواح وفي بداية ظهورها كانت رؤيتها للوجود مادية ونظرية ذرية ثم توسعت اهتماماتها حتى تحولت نظرتها إلى الوجود من فيزيقي إلى ميتافيزيقي، وكانت غايتها هو إدراك حقيقي للواقع، التي تطلبت من زعماء الفايسيشكا دراسة مقولات الواقع وأجناس الوجود العليا، وهذه المقولات ليست مفاهيم عقلية وإنما هي أشياء يرمز لها بالألفاظ.

"أما الجوهر فهو الحامل المادي لكيفيات الأشياء وميزاتها وأفعالها فظلا عن كونه علة كل تركيب وتأليف للموجودات في الطبيعة ومن هذه الجواهر يأتي التراب، الماء، النور، الأثير التي تمثل العناصر الطبيعية والتي تتألف من ذرات سرمدية لا تقبل التجزئة أو الإنقسام وهذه الذرات لاتدرك بالحواس"[1].

[1]- جماعة من الأساتذة السوفيات، ترجمة وتقديم د توفيق سلوم موجز تاريخ الفلسفة، دار الفارابي بيروت- لبنان- الطبعة الأولى- أيار1989، ص31

كما يتسم "المذهب الذري في الفلسفة الفايسيشكا بالقول بالتمايز الكيفي بين الذرات. والكيفية تختلف عن الصفة، تعتبر عندها شيئا جوهريا وأوليا. الحركة مثلا عند الفايسيشكا ليست كيفية بل صفة لأنها تنتقل من مادة إلى أخرى، أما في الجواهر المفارقة (غير الجسمية) تمثل الأثير والمكان والزمان والروح فلا حركة ولا فعل.

فالموضوعات أو الأشياء ذات الطبيعة الواحدة تعرف باسم مشترك عام، والعام واقعي، موجود في أشياء الصنف المعنى ذاتها، ولكنه لا يتطابق مع خواصها الجزئية، بل هو ماهية الأشياء الفردية ولكن مقولة العام لا تكفي لوحدها، وإلا تعذرت التفرقة بين جوهر وآخر فكل جوهر يحتوي على جانب ما، يخصه وحده دون غيره وهذا الجانب تسمية الفايسيشكا " ميزة" وسرمدية الجواهر، تستلزم سرمدية ميزتها"[1].

لكن لم يبق التفسير المادي للموجودات الطبيعية كجانب وحيد في منهج الفايسيشكا وإنما مع مرور الزمن " راح مفكرو الفايسيشكا يردون مختلف أفعال الذرات إلى إرادة كائن علوي، توجه الناس جميعا إلى الطهر الأخلاقي، ويذهبون إلى أن العالم المحدث ذو روح كونية وأن جميع المعدبين فيه سوف يتخلصون من آلامهم بعد انقضاء حقبة زمنية معينة، أما شرط هذا الخلاص، فهو خراب العالم وانحلال الذرات المؤلفة له"[2].

فلاحظ الدارسون لهذا المذهب، أنه أصبح مذهبا دينيا وأن الذرات ما هي إلا مجرد علة مادية للعالم، والإله هو علة فاعلة فيه.

إن طبيعة التفكير الطبيعية لدى الفايسيشكا تحولت إلى إلهية أنطولوجية، فالوجود عامة والوجود الإنساني خاصة، وفكرة الخلاص من العذاب، حولت مجرى التفكير من الطبيعيات إلى الألوهية والغاية هي إثبات أن الخالق للكون إله واحد وهو المخلص لأنه هو القادر على فاعليته فيه، فالنظرية الذرية للفايسيشكا سارت نحو المتجه الإلهي لإثبات عقيدة الهندوس الموجودة في الفيدا، والتي تمثل له أثرا دينيا وفلسفيا عن العالم والإنسان والأخلاق.

إن بداية الطرح الفلسفي للنظرية الذرية لدى النيايا والفايسيشكا نظرية في الوجود، ولم تكن نظرية في العلم، لأنها أصبحت الطبيعيات إلهية تدور في دائرة مغلقة من الثيولوجيا إلى الأنطولوجيا وبالعكس، لأن الوجود وإثبات لله، والمعرفة وإثبات للإنسان.

---

[1]- المصدر السابق، ص 31

[2]- المصدر السابق، ص 32